إكبار المبرد أبا تمام [1]

حازم الحاج ط

اما ابو تمام فانه رب معان . وصيقل الباب واذهان . وقد شهد له بكل معنى مبتكر . لم يمش فيه على اثر . فهو غير مدافع عن مقام الاغراب الذي برز فيه على الاضراب . ولقد مارست من الشعر كل اول واخير . ولم اقل ما اقول فيه الا عن تنقيب وتنقير . فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه اطاعته اعنة الكلام . وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام فخذ مني في ذلك قول حكيم وتعلم ففوق كل ذي علم عليم »

الاديب الناقد ابن الاثير

طلب الي ان اساهم في الكتابة عن ابي تمام . ولما كنت حفيا كل الحفاوة بالمبرد ، مقبلا اشد الاقبال على آثاره ، حريصا الحرص كله على ايفائه حقه

---

(١) هو ابو العباس محمد بن يزيد بن عبد الاكبر ، وينتهي نسبه الى الاسد بن الغوث وهو الازد فهو ثمالي ازدى بصرى . ولد بالبصرة يوم الاثنين غداة عيد الاضحى سنة (٢١٠)هـ وتوفي سنة (٢٨٥)هـ في شوال وقيل في ذي القعدة بلغ المبرد في علوم اللغة العربية وفنونها من الجلالة مالم يبلغه الا القليل حتى آلت اليه زعامة النحو البصري ، وهو-وان كان لايعرف الا بالنحوي واللغوي — ذو قدم مكينة ، وبصر نافذ بالنقد والادب . وقد خلف كتبا حسانا تدل على فضله الجم ، وعلمه الغزير ، غير ان الدهر قد عبث بجل هذه الكتب ولم يبق منها الا القليل . وهذا القليل كله علم من صميم العلم ، ولذا نراه يغني غناء الكثير ، بل اكثر من الكثير ، ومن اشهر هذه الكتب (الكامل) في اللغة والادب والنحو والتصريف . (والمقتضب) في النحو والصرف .

ونشر آرائه . كان لزاما علي ان اورد رأي المبرد في ابي تمام وشعره . واني لادلي دلوي بين الدلاء اقتداء بالمبرد كي اؤدي مايجب علينا من حق لشاعر ملك شعره الالباب وخلب القلوب ، بما حفل من رائع القول ورصانته ، وجيد المعنى ورونقه ، وعبقري الفكر وبديعه ، وعذوبة الاسلوب وروعته . وسمو الخيال وحدته ، ودقة التصوير وجودته . ومصطفى اللفظ ونيره . فتبوأ مكانة سامية لاتدانيها مكانة ، وحل في النفوس منزلة لاتساميها منزلة .

ولست بمسرف في القول ان قلت: ان ابا تمام هو ذلكم الطود الاشم الذي يعز على من رامه . انك اينما وليت وجهك شطر شعر الرجل رأيت صورا فنية شائقة تبهرك وتثير فيك الاعجاب . ولو انك ارسلت الطرف وامعنت النظر مرة اثر اخرى في شعره لتبدت لك غرر أخاذة ، ومعان رائعة لم تهتد اليها من قبل .

فابو تمام — وبيننا وبينه مايربو على الف سنة — يطغى على الدهر جدة . ويزهو على الايام قوة . فلكم صور ما نحس به من خلجات واحاسيس فأوفى على الغاية من دقة التصوير . ولكم ابدى ماتكن اعماق افئدتنا من مطويات اخبارها ، ابداها حكمة بالغة تخطت الحقب ، واجتازت مفاوز الزمن فتجلت لدة الدهر في شبيبته .الق السمع الى بعض حكمه التي لايشينها خطل ولا خلل :

وليس يجلي الكرب رمح مسدد اذا هو لم يؤنس برأى مسدد «١»

وقوله «٢» :

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

---

(١) يجلي : يكشف ، ورمح مسدد : مصوب الى هدفه ، ورأى مسدد موفق للصواب ، ويؤنس اراد يضاف له فيؤازره . والبيت من قصيدة له مطلعها :

غلت تستجير الدمع خوف نوى ند وعاد قتادا عندها كل مرتد

(٢) البيتان من قصيدة له مطلعها :

أرأيت اي سوالف وحدود عنت لنا بين اللوى فزرود

وقوله «١» :

لاتنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

وقوله «٢» :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس احيانا على من يرحم

وقوله «٣» :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدى الفتى في دهره وهو عالم

ولو كانت الارزاق تجري على الحجا هلكن اذن من جهلهن البهائم

وقوله «٤» :

ليس الصديق بمن يعيرك ظاهرا متبسما عن باطن متجهم

تره فيها عالما من علماء النفس والاجتماع بلا الزمان واهله ، وسبر اغوار نفوسهم ، ودرس طباعهم ، وخبر اعماق افئدتهم . وكشف عن مكنون صدورهم . فكان ما احس به صادرا عن وحي ذكائه الثاقب ، ورأيه الصائب . مدللا كل اولئك ببرهان ساطع ، وحجة قوية لاتدحض . اذ انه كان لايصدر حكمه وآراءه الا بعد اختبار طويل ، ودرس عميق . وما هذه الحكم الا دليل قاطع على حصافة ابي تمام ، وثقوب بصيرته ، وعبقرية الفكر . ولله دره اذ يقول في وصف شعره :

---

(١) البيت من قصيدة له مطلعها :

كفي وغاك فانني لك قالي ليست هوادي عزمتي بقوالي

(٢) البيت من قصيدة له مطلعها :

ارض مصردة واخرى تشحم منها التي رزقت واخرى تحرم

(٣) البيتان من قصيدة له مطلعها :

الم يأن ان تروى الظماء الحوائم وان يظم الشمل المشتت ناظم؟

(٤) البيت من قصيدة له مطلعها :

نثرت فريد مدامع لم ينظم والدمع يحمل بعض ثقل المغرم

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى والليل اسـود حالك الجلباب
بكرا تورث في الحياة وتنثني في السلم وهي كثيرة الاسلاب
ويزيدها مر الليالي جـدة وتقادم الايام حسن شـباب

الى غير ذلك من الحكم التي يزخر بها شعره . فالرجل يفيض قلبه بالحكمة الصائبة ،والتجربة الصادقة ، وهو في هذا كالبحر الذي جشأت غواربه يغمر برغمه ساحليه .

ولم يكن ابو تمام بالذي نال ما نال من المقام بما ذكرنا من ابيات ، بل سما بالشعر فتبوأ الذروة به جله . وحسبك دليلا ان تجيل الطرف بين لابتي ديوانه، ودفتي آثاره فانك لن تصيب الا اسمى الشعر وارفعه، واجود الكلام واروعه ، واحسن القول وابلغه .

لقد استهدف ابو تمام بشعره كل غرض من اغراضه ، وولج كل مولج من فنونه ، وطرق كل مغنى من معانيه . فكان المجلي . فما وهن ولا اسـف ولا فشلت مراميه ، ولا شاهت معانيه . انه كان ينتحي منحى تواتيه فيه الغرر امتلك بها ناصية الفن الشعري، فكان لها في سويداء القلوب مقام ومستقر فلا تبرحها .

* * *

لمحة خاطفة الى الشعر ،قديمه ومحدثه عند اللغويين والنقاد والرواة في عصر المبرد وعصر من سبقوه :

واني — قبل ان اعرض لرأى المبرد في ابي تمام وشعره — اود ان اضع امام نظر القارىء كلمة موجزة لا مندوحة عنها ، الا وهي نظرة ائمة اللغة والنقد والرواية الى الشعر قديمه ومحدثه في عصر المبرد وعصر من سبقوه وما اثارت هذه النظرة من اوار بين فريقين متباييني المنزع ،مختلفي الوجهة حتى يستبين القارىء منحى المبرد في الشعر قديمه ومحدثه .

ان فريقا تعصب اشد التعصب للشعر القديم وديباجته ورسومه . وكان وكان لا يراه الا المثل الكامل لما ينبغي ان يكون عليه الشعر .

ولا يعدل به شيئا فاحله محل العناية والرعاية . اما المحدث فكان عندهم غثاء لا يعبأ به . فلذا نراهم اعرضوا كل الاعراض عن ابي تمام وابي نواس والمتنبي والبحتري وغيرهم ، ونأوا عنهم بجانبهم ، وطووا كشحا عن شعرهم .

اما الفريق الاخر فلم ير رأي الفريق الاول ، وانما نظر الى الشعر من حيث هو شعر دون نظر الى الزمن سواء اكان مصدره قديما ام حديثا . ويرى ان فضيلة الشعر انما تنبع من ذاته وصدق جوهره ، وان المحدثين والقدماء في هذا الميزان سواء . ومن هنا احتدمت المعركة بين هذين الفريقين في نظرتهما الى الشعر . فهذا ابو عمرو وهو من غلاة المتعصبين للشعر القديم ، ويعد الشعر الاسلامي شعر مولدين حتى كان يقول : «لقد احسن هذا المولد حتى هممت ان آمر صبياننا بروايته» «١» يعني بذلك شعر جرير والفرزدق . فجعله مولدا بالاضافة الى شعر الجاهلية والمخضرمين . وكان لا يعد الشعر الا ما كان للمتقدمين .

قال الاصمعي : جلست اليه ثماني حجج فما سمعته يحتج ببيت اسلامي . وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا اليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم . ليس النمط واحدا : ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسيح ، «٢» وقطعة نطع . علق ابن رشيق بقوله : «هذا مذهب ابي عمرو واصحابه : كالاصمعي وابن الاعرابي ، اعني ان كل واحد منهم يذهب في اهل عصره هذا المذهب ، ويقدم من قبلهم ، وليس ذلك الشيء الا لحاجتهم في الشعر الى الشاهد . وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ثم صارت لجاجة . «٣»

ويروى المرزباني في مؤلفه «٤» ان ابن الاعرابي كان يقول : «انما اشعار هؤلاء المحدثين — مثل ابي نواس وغيره — مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به ، واشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا» .

---

(١) العمدة لابن رشيق ، ج١ ص٩٠ ، ٩١ .
(٢) قوله المسيح : المنديل الخشن .
(٣) نفس المصدر ، ص٩١ .
(٤) الموشح ص٣٨٤ .

ويروى ايضا عن ابي عبيد الله التميمي قوله : «كنا عند ابن الاعرابي فانشده رجل شعرا لابي نواس احسن فيه . فسكت.فقال له الرجل : اما هذا من حسن الشعر ؟ فقال : بلى . ولكن القديم احب الي » «١» .

ويروى ابن قتبة في مؤلفه عن ابي الحسن الطوسي قوله : «كنا عند ابن الاعرابي . فقال : ايهما احسن عندكم قول ابي نواس :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

او الذي اخذ منه ،وهو قول الاعشى :

وكأس شربت على لـــذة واخرى تداويت منها بها

فسكتنا . فقال : السابق اجود » «٢» .

هكذا يحكم ابن الاعرابي . ويفضل بيت الاعشى على بيت ابي نواس . وكان الناس يستجيدون قول الاعشى الى ان قال ابو نواس بيته فزاد فيه معنى . اجتمع له به الحسن في صدره وعجزه . فللاعشى فضل السبق عليه . ولابي نواس فضل الزيادة عليه مع ان قول ابي نواس :

وداوني بالتي كانت هي الداء

قد اخل بيت الاعشى ، وسار وحـــده .مثلا بما فيه من ايجاز وخفة ورشاقة ، ولكن هي العصبية للقديم .

ويقول الصولي في مؤلفه : «ومن الافراط في عصبيتهم عليه — يعنى ابا تمام — ما حدثني به ابو العباس عبد الله بن المعتز قال : حدثت ابراهيم بن المدبر — ورأيته يستجيد شعر ابي تمام ولا يوفيه حقه — بحديث حدثنيه ابو عمرو بن ابي الحسن الطوسي ، وجعلته مثلا له ، قال : وجه بي ابي الى ابن الاعرابي لاقرأ عليه اشعارا . وكنت معجبا بشعر ابي تمام . فقرأت عليه من اشعار هذيل ثم قرأت ارجوزة ابي تمام على انها لبعض شعراء هذيل :

وعاذل عذلته في عـــذلـــه فظن اني جاهل من جهله

حتى اتممتها . فقال : اكتب لي هذه ، فكتبتها له ، ثم قلت : احسنة هي ؟

---

(١) المصدر السابق ص٣٨٤ .

(٢) المصدر السابق ص٤١٣ .

قال : ماسمعت باحسن منها ! قلت : انها لابي تمام فقال : «خرق «١» خرق» «٢» .

ويروى الجرجاني في مؤلفه «٣» « ان اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : انشدت الاصمعي :

هل الى نظرة اليك سبيـــل فيبل الصدى ويشفى العليل ؟
ان ماقل منك يكثر عنـدي وكثير ممن تحب القليـل

فقال : والله هذا الديباج الخسرواني . لمن تنشدني ؟ فقلت : انهما لليلتهما . فقال : لا جرم والله ان اثر التكلف فيهما ظاهر» .

الى هذا الحد من التعصب والاسراف وصل الامرعند هؤلاء في لمز المحدثين وعيب اشعارهم . لا لعيب سوى حداثتهم . ويؤثرون عليهم المتقدمين لا لا لمزية سوى قدمهم، من غير حجة ، ولا نقد معلل ، ولا موازنة مقبولة ، على اننا اذا امعنا النظر . واجلنا الطرف في شعر المحدثين : ابي تمام وابي نواس والبحتري والمتنبي وغيرهم وجدنا فيه من نضارة الشعر وفصاحته ، وبراعة معانيه ،ودقة تعبيره وحلاوته ما لم يظفر بمثله الشعر القديم .

اما وقد استبانت مما عرضناه نظرة اللغويين والنقاد والرواة الى قديم الشعر نظرة ترينا القديم في الذروة وان كان سمجا غثا . واما المحدث وان علا وتسامى فهو عندهم هراء فج غير جدير بالالتفات اليه .

بعد هذه اللمحة الخاطفة التي لم يكن بد من تقدمتها بين يدي القارىء يجدر بنا ان نسأل هذا السؤال : هل جارى المبرد معاصريه ومن سبقوه من اللغويين والنقاد والرواة في نظرتهم الى الشعر ؟ والجواب عن ذلك ان مقام المبرد في العلم لم يجعله اسيرا ولا رهينا لمذهب معاصريه ومن سبقوه من اللغويين والنقاد . انه نهج نهجا خالفهم فيه، ووقف من الاثار قديمها وحديثها موقفا لا يصغي فيه الا الى رأيه ، ولا يسترشد الا بمنطقه ، ولا يحابي من كانوا

(١) التخريق : التمزيق
(٢) اخبار ابي تمام للصولي، ص١٧٥ -١٧٦ .
(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص٥٠ .

يرون القديم جليلا والحديث غثا . انه رأى جل العلماء واللغويين والنقاد يؤثرون القديم ويجعلون كل قديم عندهم ذا شأن خطير ، ومقام رفيع . ولكن المبرد القاضي العادل . والحكم الامين اعرض هذا الاتجاه ووقف الموقف الذي يليق بامثاله من الذين تضلعوا في العلم ، واخذوا من الثقافة باوفر حظ واوفى نصيب ، وعكف على التراث قديمه وحديثه فاستحسن ماكان حسنا من القديم ، واستحسن كذلك ماكان حسنا من الحديث . ان الحكم الفصل عند المبرد القول نفسه لا القائل قديما كان او حديثا . فالقول ان اوتي الحسن فهو حسن سواء اكان زمانه قديما ام حديثا وهذا ما حدا به ان يعجب ويستحسن الكثير من شعر ابي تمام .

انشد المبرد قول ابي تمام : «١»

شهدت لقد اقوت مغانيكم بعدى ... ومحت كما محت وشائع من برد
وانجدتم من بعد اتهام داركم ... فيا دمع انجدني على ساكني نجد

حتى بلغ الى قوله :

اتاني مع الركبان ظن ظننته ... لفقت له رأسي حياء من المجد
لقد نكب الغدر الوفاء بساحتي ... اذا وسرحت الذم في مسرح الحمد

فقال المبرد :

«ماسمعت احسن من هذا قط . ما يهضم هذا الرجل حقه الا احد رجلين اما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، واما عالم لم يتبحر شعره ، ولم يسمعه . »

فالمبرد في هذه اللمحة النقدية فسيح الافق ، بصير بفنون الكلام ، حسن الذوق ، صادق الحكم في استحسان قول ابي تمام . اذ انه قصد فيه الكلام الفصيح ، والمعاني الواضحة ، وحسن الوصف ، وجمال الرصف ، وجزالة اللفظ واستقامته . والمعروف عن ابي تمام انه كان ذا منهج بياني ينتحي فيه منحى صادرا عن طبعه حتى اتى كثير من شعره فيه عمق يتطلب من قارئه كد

(١) اخبار ابي تمام للصولي ص٢٠٢ .

الفكر حتى اذا لان له عصيه . وذل شاسه استطاع ان ينفذ الى اغواره ،ويصل الى اسراره . ويكتنه معانيه الخفية .

ويقول : «١» «لابي تمام استخراجات لطيفة . ومعان طريفة ،لايقول مثلها البحتري وهو صحيح الخاطر حسن الانتزاع . وشعر البحتري احسن استواء . وابو تمام يقول النادر والبارد وهو المذهب الذي كان اعجب الى الاصمعي . وما اشبه ابا تمام الا بغائص ،يخرج الدر والمخشلبة ، ثم قال : والله ان لابي تمام والبحتري من المحاسن مالو قيس باكثر شعر الاوائل ماوجد فيه مثله » .

والمبرد بهذا الحكم قد انصف كلا من الشاعرين اعدل انصاف . اعطى ابا تمام خواصه في اختراع المعاني وطريفها ، وصحة خاطره في حسن انتزاعها . كما اعطى البحتري حقه في استواء الاسلوب والمعاني ، وان شعره من درجة واحدة في الاعتدال . واخيرا انصف الشاعرين جملة من تقدمهما من الشعراء الاوائل . وان لهما من المحاسن مالو قيس باشعار القدماء ما وجد مثله .

وهكذا يدق نظر المبرد وذوقه النقدي المنصف في شاعرين يعاصرانه . ويكثر حولهما الخلف وتباين الاراء . كما انه كان غير هياب من المجاهرة بالنقد واظهار مكامن الحسن او القبح فيما يسمع او يقرأ وان كان القائل من نابهي الشعراء او الادباء .

ويقول في معرض الموازنة .

وقال احد الشعراء «٢» :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

يقول : اغترب فأكسب مايطول به مقامي معكم وقربي منكم .

ومثل ذلك قول الاول : «٣»

---

(١) اخبار ابي تمام للصولي ، ص٩٦ ، ٩٧ .

(٢) هو العباس بن الاحنف .

(٣) البيت لعروة بن الورد .

تقول سليمى لو اقمت لسرنا ولم تدر اني للمقام اطوف
وهذا الثاني واضح حسن . وهو ابين من البيت الاول .
واماح ماجاء في هذا المعنى واحسن قول ابي تمام حبيب بن اوس الطائي :
أألفة النحيب كم افـــتراق اظل فكان داعية اجتماع
وليست فرحة الاوبات الا لموقوف على ترح الـــوداع
علق المبرد بقوله «فهذا كلام عربي محض . وهذا مفاضلة بين الاشكال والنظراء» «١» .

ففي البيت الاول نرى الشاعر يريد النوى كي لايمل طول مقامه بينهم . فبعده عن الاحبة يقربهم من قلبه ويكثر حنينه منهم . اذ من عادة الزمان الاتيان بضد المراد . فاذا اريد البعد يأتي الزمان بالقرب . ويريد الشاعر ايضا ويطلب الحزن الذي لازم البكاء ليحصل السرور بما هو من عادة الزمان .
فاراد ان يكني عما يوجبه دوام التلاقي من السرور بالجمود . لظنه ان الجمود هو خلو العين من البكاء مطلقا .

ومما ينبغي ان ننوه به ان الجمود لايكون كناية عن السرور . بل عن البخل فيكون الانتقال من جمود العين الى بخلها بالدموع لا الى ما قصده من السرور .
وهذا ما ورد عن اهل اللغة «سنة جماد» اي لا مطر فيها ، و «نامة جماد» أي لا لبن فيها .

واما البيت الثاني فأبين واوضح كما قال المبرد ، لان الشاعر يطوف لا حبا في التطواف بل طلبا لشدة القرب ان حل بين ظهراني اهل حبيبته . فطول الثواء يورث الملل والسأم . والشاعر يريد ابعاد هذا الملل والسأم واما قول ابي تمام فهو — لاشك فيه — اوضح وادق واغزر معنى من البيتين . اذ ادى الحقيقة في اسباب واقعية . فالترح — أي الحزن — يكون ساعة الوداع ، والفرح والسرور يكونان ساعة اللقاء . فالمتحابان قد يتصارمان ويتهاجران دلالا لا عزما على القطيعة . فاذا حان الرحيل واحسا بالفراق تراجعا الى الوداد وتلاقيا خوف الفراق . وان يطول العهد بالالتقاء بعده ، فيكون الفراق حينئذ سببا للاجتماع .

(١) البلاغة لابي العباس المبرد ، ص٦٢، ٦٣ .

واني اويد المبرد فيما ذهب اليه . واركن الى ترجيحه . فالترجيح واضح لكل من اوتي فهما للمعنى . اننا لمسنا كما لمس المبرد نهاية الحسن وغاية الكمال في قول ابي تمام . فالجودة بادية . والروعة ظاهرة . فلا بد من الاعتراف بفضل صاحب الفضل .

وانشد المبرد للعتبي : «١»

اضحت بخدى للدموع رسوم اسفا عليك ، وفي الفؤاد كلوم
والصبر يحسن في المواطن كلها الا عليك ، فانه مذمـــوم

قال : واخذه الطائي فقال في ادريس بن بدر السامي :

دموع اجابت داعي الحزن همع توصل منا عن قلوب تقطع
وقد كان يدعى لابس الصبر حازما فاصبح يدعى حازما حين يجزع

قال : وجاء به الطائي في موضع آخر . فقال :

الصبر اجمل غير ان تلذذى في الحب احرى ان يكون جميلا

ان هذه الابيات ترينا ان المبرد كان يلتمس شعر ابي تمام انى وجده وفي اية مناسبة انشد كلفا بشعره وهياما به .

ثم نرى المبرد يضع بابا خاصا باحسن ما قيل في غرض من اغراض الشعر ، وفي هذا الباب استحسن ما قاله ابو تمام في الشيب ، فيقول : « ٢»

« قصدنا فيما نحكيه في كتابنا هذا حسن الاختيار ، وكثرة الاختصار ، وذكر ما يستغنى به عن غيره ، ويقنع بمثله عن نظيره ، وانما نذكر في كل باب احسن ما روى لنا فيه ، واطرف ما نمي الينا منه » .

ثم يقول « كانت العرب تذكر الشيب في اشعارها اما مدحا واما ذما ، وشعرهم في ذمه اكثر منه في مدحه ، ويروى انه قيل : ما بال شعركم في الشيب احسن اشعاركم في سائر قولكم ؟ قالوا : لانا نقوله وقلوبنا قرحة » .

وقال الطائي :

---

(١) الموازنة ، ص١٠٣ .
(٢) الفاضل للمبرد ، ص ٧٥ .

ارى الفات قد كتبن على راسي باقلام شيب في صحائف انقاسي
فان تسأليني من يخط كتابتها فكف الليالي تستمد بانفاسي
جرت في قلوب الغانيات لشقوتي قشعريرة من بعد لين وايناس
وقد كنت اجرى في حشاهن مرة مجارى معين الماء في قضب الآس

نرى ابا تمام بوصفه هذا يبكي شبابه بعد ان دب المشيب في رأسه ، وبلغ في رأسه مبلغا افقده ما كان يتمتع به من صبوة ، ومن قوة وفتوة، واقبال على الحياة كان ينهل منها ما لذ وطاب ،وما الشيب الا مدعاة للرثاء على النفس ،وبكاء على زوال العمر ،وشعور بأن ما فات لن يعود .

فالمبرد في اختياره هذا النص فارس حلبة وسباق الى ما حسن من مكامن الحسن في روائع الكلام .

اما وقد استنفدنا ما قاله المبرد في ابي تمام وشعره ، فكانت حصيلة آرائه ان ابا تمام من فحول الشعراء المحدثين ، وان المبرد قدر شعره حق قدره، ولولا ان هذا الشعر كان قمينا بالاكبار لما استوقف اماما من ائمة اللغة والنقد واثار فيه الاعجاب . والمبرد بهذا الرأى يرتفع في نقده عن مستوى العصبية التي تنزع الى العصر ،وتفضل شعر عصر على شعر عصر اخر. ويرى ان فضيلة الشعر انما تنبع من ذاته، وصدق جوهره ،وان المحدثين والقدماء في هذا الميزان سواء ،لا ميل الى جانب ،ولا تعصب الا للحق ،ولا فضل لقديم لقدمه، ولا لمحدث لحداثته ، انما الشان في الاثر وقيمته ونفاسته وجودته ،واذا عرفنا ان المبرد من رجال اللغة الذين حملوا على الشعر المحدث حملة عنيفة ادركنا صدق نظرته ،ورجاحة عقله، وفرط اتزانه ،وترفعه عن العصبية القائمة على الهوى ،وانه بذلك خالف مدرسته اللغوية في هذا الاتجاه، وانه حاول ان يصل جديد الادب بقديمه ، وإن خالف جل اللغويين والنقاد والرواة . ولا اكون مسرفا ان قلت : ان المبرد كان اول نهج مهيعا لا حبا ، واضح المعالم والصوى في نظرته الى الشعر .

وانه لقمين بنا ونحن في هذا المقام ان نقف ولو وقفة قصيرة لنفند رأى من انتقص شعر ابي تمام . ان بعض النقاد زنوا شعر ابي تمام بمعائب ، منها : حرصه على الصنعة البديعية حتى قالوا ان شعره ليس بشعر الطبع ، بل هو شعر الصنعة . والصنعة هذه تبعد شعره عن الشعر . ورميه باختيار الوحشي من الكلام والمستكره من الالفاظ ،وعدم ملاءمته بين الالفاظ والمعاني حتى جاء شعره مما تنبو عنه الاذان ، ولا تهفو النفوس الى سماعه لاحتوائه كثيرا من الالغاز والاحاجي والمعميات وهذا غير مستملح في ميادين الشعر .

ولسنا بمغالين ان قلنا ان هذه المعائب ليست معائب ، بل هي مظهر من مظاهر شاعريته الفذة يحمل بين حناياه اسرار هذه الشاعرية التي يتراءى من خلالها استعداده الفطرى للاتيان بالبليغ من الشعر ،وحافظته القوية التي كانت تمده بذخائر ثرة من مفردات اللغة واسرارها وفقهها وقوانينها . وذاكرته المسعفة كانت تمده اذا اهاب بها وسلامة ذوقه المهيمنة عليه فيتخير اللفظ الذي يستدعيه المقام فيخرج اسلوبه مسبوكا . فشعره يصدر عن طبع اصيل وملكة موهوبة ، وفطرة ناضجة ، وليس بشعر صنعة . وما من شك في ان احدا لا يندم على ما يقضيه من الوقت مع شعر ابي تمام ،يقرأ له ، ويقلب الطرف فيه ، ويقف وقفة متأمل فاحص يشاركه وجدانه الحي ، وعواطفه الصادقة ، وتصويره النابض ، وفنه الساحر ، انه يحمل القارىء على ان ينسجم معه . ويشاركه في مشاعره . وما هذه المياسم الا الميسم الحقيقي لشعر ابي تمام . ان شعره كان وما يزال في القمة بين الاداب ، يساير الحياة ،ويجرى مع الحضارات المتعاقبة ، وتلهج الالسنة بترديده والتمثل به . ولا تزال تعاوده رواية ، ويعاودها ، اشراقا وامتاعا لانه فياض بالمشاعر الصادقة والوجدان الشريف ، والتجارب الواعية والالفاظ الرصينة ينتزعها من الحياة نفسها مقرونة بعمق في النظرة ، وبعد في المرمى ، ودقة في الصياغة . تنال الكلمة منه حقها وتحتج منه وحيها ، وهذه الخلال التي كتبت لشعره الخلود ، وجعلته ذخيرة ثمينة لا تنفد على مر الايام روعتها ،وهي عندنا سر حبنا اياه ، واعجابنا

به وانتصارنا له .

لقد ارسل من سوابق القريض ما يعز نواله ، ولا يسهل ترسم اثاره . وماله لايتبوأ هذا المقام بين فحول الشعراء ؟ وهذا ديوانه نقرؤه فلاينتهي تقديرنا ولا يتضاءل اكبارنا واعجابنا . هوشاعر ينبئك مرسل شعره بان نظره كان يلج اعمق الاشياء فيصوغها ابرع صياغة ، ويصورها اروع تصوير .ما من شك في هذا ، ولا كان في وقت من الاوقات مثار حوار بين ذوى البصر والدراية بمنازع الكلام الذين قوموا الكلام بما يحمل من قيمة ادبية وفنية .

فابو تمام شاعر من قبل ومن بعد ، ذو اسلوب لاينبئك عن شعره الا ذوقك له . وانك ساعتها لتقول ، انه هو ، انه ابو تمام الشاعر العبقري .

وبعد : فقد اسهبت ولكن الاسهاب لم يوف ابا تمام حقه ، وان في النفس لكثيرا من الحديث لايتسع الوقت لبثه . فالحديث عن ابي تمام يستنفد الضخام من الاسفار ولكن ان فات الكثير فعلينا ان نورد مايقتضيه المقام ، لعل هذا القليل يكون فيه انصاف لشاعر عبقري سار ذكره في الافاق ، واثار شعره اهتمام الادباء والنقاد وملأ مجامع الادب ومحافله ، ولحث نشئنا المتأدبين ان يغترفوا من نميره العذب علا ونهلاليحسنوا الخلافة في ارثهم عن السلف واحر بهم ان يجدوا من هذه الكنوز ما يجملون به منطقهم ويكسون به سوانحهم ، كي يعطوا تراثهم مايقتضيه من حق عليهم . انهم كادوا يضيعون هذا الحق بعد ان نعب الغربان بالاعراض عن التراث العربي ، والاستعارة عنه بهذه القمامات التي هي السموم بين حنايا بعض الكتب والمجلات الماجنة كي يموت ذوق النشيء، وتنقطع صلته بماضيه الذي كان مازال مفخرة من مفاخر الدهر .